

الحيل وفي امتشاق المستحيل ، فامتطاء غيبة أو العبث بالنجوم ، بنظرهم أكثر واقعية من كل تقديراتنا القائمة على الرزانة الطمعية والتجربة والقياس .

### ملاحظات أولية حول التجربة

١ . اخترت مخيم البقعة ليكون موضع التجربة لعدة أسباب ، أهمها وجود أكبر تجمع بشري من النازحين داخل مخيم (آ٠) . ولوجود عدد كبير من مدارس الأطفال (آ١) من جميع بقاع فلسطين ومناطقها ، بحيث يشكل المخيم أرضا نموذجية للتجربة ، تعيش عليها أبرز رموز القضية الفلسطينية ، تطوراتها المعاصرة : حركة المقاومة الفلسطينية . مثلما أن المخيم وهو أحد المظاهر المترتبة على الحرب والاحتلال والنزوح ، يكون أطارا اجتماعيا واسعا لدراسة الملامح القديمة والحديثة لبنية المجتمع الفلسطيني ومؤسسته المختلفة في فترة محددة .

٢ . اخترت ألوان الباستيل لعمل الرسوم ، وذلك لسهولة استعمالها وتحريكها على الورق . كما استخدمت بصورة محدودة خامات أخرى مثل الألوان المائية ، والأقلام الخشبية الملونة ، وأقلام الرصاص ، والفلوماستر ، كحل حسب حاجة الموضوعات وطبيعة هذه الخامات . وروعبت ، عند استخدام هذه المواد ، خبرات الطفل ، وتمايلته ومزاجه الخاص في التلوين . غير أن ألوان الباستيل استخدمت بصورة رئيسية لكونها خامة مناسبة للأطفال الذين ليست لهم خبرة سابقة في الرسم .

٣ . اشترك في التجربة مئات الأطفال من مختلف الأعمار ، فتراوحت ما بين سن ٣ سنوات - ١٤ سنة . وبشكل خاص الأطفال في الصنوف الدنيا ، ما بين الأول الابتدائي والسادس الابتدائي . ومجموعات أخرى من الأطفال في سن الروضة ، ومجموعات صغيرة في سن ادنى من الروضة ( ٣ سنوات ) ، وبعض الطلبة في سن الاعدادي .

٤ . لوحظ أن مجموعات كبيرة من الأطفال تمسك بأصابع الألوان لأول مرة ، وخاصة في السنوات الدنيا ، ونادرا ما تعاملت مجموعة كبيرة من الأطفال مع الألوان من قبل ذلك (آ٢) . وقد انعكس ذلك في النتائج الأولية من الرسوم ، حيث اتسمت معالجات الأطفال ، للمساحات والخطوط بالفوضى

أقل من المجانية ومن اليسر : الحلم الجميل لا يسجل وحدة على الورق ، فعلى حواف الحلم تطل كوابيس الحرب والموت . أن رسوم الأطفال تقدم هذا « الكل » الطفولي ، المكثف ، لونا وتشكيلا وموضوعا . وقيمتها الأساسية في أنها تمنح بين أيدينا هذا الكل الطفولي ، الثري .

إن هذه الرسوم كي نفهمها حقا ، ينبغي أن نكون ندرائنا على « الإدراك الكلي » وعلى « الرؤية الكلية » ، واستجماع كل القدرات على التجاوز والامتداد والتجول بين أبعاد لا متناهية من الزمان والمكان ، ومعايشة كل التفاصيل ، واللحظات الملونة والإحياءات الرمزية ، وتمثل الكلمات للثغاء ، وكافة الأخطاء اللغوية المعبرة ، والمسجلة على حواف الرسوم وخلالها . إذ لا يمكن أبدا ، وخصوصا أمام رسوم الأطفال ، أن ننظر من خلال نظارتنا الذي يتلمس الأشياء باعتباريتها اليومية . مع ذلك ، فإن ثمة من يعتقد ، أنه لن يستطيع « استنزاج » كل هذا الخليط من الأشياء والرموز والأشكال المتمثلة في رسوم الأطفال ، ولكن هذا لا يضر الأطفال ، الذين لا يتجاوزون الواقع ، مهما بلغ بهم الخيال .

يقول سرل برت « أن تذوق الأطفال ، لا سيما أولئك الذين تحت الثامنة من العمر ، يظهر أن له علاقة إيجابية بتذوق الفنانين ونقاد الفن » (١٩) . ذلك أن كل المحاولات الحديثة في الفن ، من إسقاط للجدار السابع ، إلى إسقاط المعمار المسرحي التقليدي ، إلى التكوينات الدينامية الحية والتجسيم في التصوير ، بل إن الإيقاعات الداخلية في الشعر ومحاوله تجاوز عقدة اللغة والصوت ، ما هي إلا تمثيلات وأعية من ( الأطفال الكبار ) لجعل الفن أقدر على صياغة علاقاته مع العالم والجمهور في هذا العصر ، عصر آلة الانتاج الضخمة ، التي بقدر ما ولدت من تقدم ، ولدت بالمقابل علاقات إنسانية وأخلاقية وثقافية متأزمة . وأخيرا ، فإن أطفال مخيم البقعة ، ما زالوا أقدر منا على جعل ملاقة الفن بالحياة يمثل هذه الحيوية والاتصال والتجدد ، إذ أنهمم - رغم كل مسا عرفوه - لا يزالون يملكون المقدرة السحرية على الامتداد ، وعلى تكثيف العالم ، وعلى رؤيته دفعة واحدة ، عبر رسبه وتلوينه ، هذه المقدرة الزائفة ، نسبيها من قبيل المزاج أو السخرية « خربشة » . أنهم جريئون - عادة - في ابتداع